"حقيبة" شذا شرف الدين: مَلأى ولا شيء فيها

روجيه عوطة

الأربعاء 08/04/2015

بحسب وجهة الحقيبة (أو الشنطة)، التي تحملها شذا شرف الدين، أو تقف إلى جانبها، يتعين سردها الذي ما إن يأخذ برواحٍ حتى يقطعه من آخر طرفه. العناء له حصة من هذا الفعل، لكنه لا يظهر بحاله أو عليها في الجسم وسلوكه، سوى ربطاً بالانتقال الفالح، والمصاب بكبوة، في الوقت نفسه. إذ يستوي على تحرك وترك على حد سواء، تحرك مبارح للمكان وترك لبعض الآثار داخله، تلافياً لإرهاق مبكر أو تشتيتاً لإجهاد سابق. بعد ذلك، أو به، قصة الرحيل، التي ينطوي عليها كل نص في كتاب شرف الدين، "حقيبة بالكاد تُرى" (دار الساقي)، مؤلفة بتثبيت مشهد أكثر من إبطاء واقعة، وبمعاينته أكثر من الإسهام في تقصيه وحرفه عن أشخاصه. فالعين طابع ملصق على غلاف العيش في برلين، التي، بحسب الكاتبة، يتخدر فيها الشعور بالنقص.

في المطار، يبدأ السرد، وأول ما يبدو من ذاته، الأيدي اللاقطة لحقيبة موضوعة فوق شريط متحرك، قبل أن تختفي لترجع لاحقاً. وهذه الذات سرعان ما تتحول إلى شاهدة على مدينةٍ، كانت فيها، غادرتها، ثم قررت المجيء إليها من جديد. تالياً، ظلت في منزلتها منها، في الوسط بين الذهاب والإياب، أي في موضع، تولد عليه بعين دقيقة في تسجيل صلاتها مع الخارج، الذي يتواصل تقسيمه بين وراء وأمام، بلا جمع أو قلب لكل جانب من جوانبهما. الكتابة، على إثر ذلك، تدنو من الإسترخاء، وهذا ما يشير إلى ركيزتها البرلينية. لكنها، وبالإقتراب نفسه، تسعى إلى تفعيل حضورها، أي الإنخراط في مكانها أكثر، حتى لو انتهى أمرها بـ"مهما يكن" وبـ"هكذا كان" و"في أي حال". ذاك، أن الساردة تعاين محيطاً فاتراً، ولا حادثة تنكده إلى حدّ التشويق، على الرغم من قلة نشاطه، لذا تنسجم المعاينة معه وتعبره باهتمام لأنه موضوع للقصّ، لتمثيل الجدير بالعيش، "ليس إلا".

هنا، لا تكون الحقيبة غير مرئية، لأنها من دون بيان. بل لأن الشاهدة-الساردة تنتقل على إثر المحمول فيها، الذي هو نفسه المتروك بين القصص-المَشاهد. مرةً، هي شنطة صخمة، ومرةً، فارغة، وحيناً، تتغير محفظة، وحيناً سلة مهملات، وربما غرفة أيضاً. غير أن محتوياتها، التي لا بد من الذهاب بها من مكان إلى آخر، تظل في الأول ولا تخفف من حركة تاركها في الثاني، لتنتج لديه رشاقة فاقدة لشعورها بنفسها، وهو شعور لا ينتاب كائنه سوى على شكل موزون: "شعرت حينذاك بثقل في رجلي وبأنه لم يعد هناك ما أتحدث فيه مع السيد شرايمان".

على أن الأغراض التي لا توضب في الشنطة - وهذا ما يجعلها بلا مرأى من الساردة - تدل عليها الكتابة وتكتفي بوضعها بين مزدوجين، "الغطاء البرتقالي الذي كنت أغطي به الكنبة العتيقة لا يزال حيث وضعته. الطاولة البيضاء المستديرة التي وجدتها ذات يوم مرمية أمام أحد المباني، أيضاً في مكانها. التلفزيون في زاوية الغرفة نفسها. الأوراق والفواتير والرسائل الرسمية...". إذاً، السرد يغض عينه عن تلك الأغراض ولا يحشرها في حقيبتها، أو بالأحرى حقيقتها، والكتابة تحصرها بين المقاطع لتصبح علامة فصل أو تعداد، وتضيف إليها غرضاً آخر، هو النوم، الذي أصاب الكاتبة بعد رجوعها إلى منزلها لأخذ ما تركته فيه فتركته داخله: "نمت كما لم أنم منذ أشهر، نوماً بلا أحلام ولا انقطاع. نمت كما لو أنني متّ قليلاً". لم تحمل الكتابة تلك الأغراض، والسرد تغاضى عنها، وبعد النوم في النصّ، تظهر الحقيبة مَلأى ولا شيء فيها.

الحقيبة بوصفها حقيقة الترك والتحرك لا تعود مليئة بخفتها في نهاية الكتاب، مثلما كانت في بدايته التي تمحورت حول السرد المذكراتي. إلا أن اليد التي كانت تحملها، لم تعد على هذه الحال، "ثم حمل شنطتي الثقيلة وقادني إلى الغرفة الصغيرة المخصصة للطلاب حيث سأعيش السنوات الثلاث القادمة". ما يؤدي إلى فتح تلك الحقيبة، ومحاولة

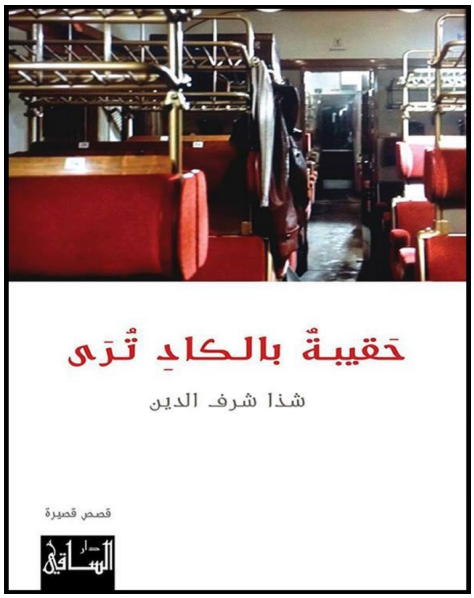

العيش بمعزل عن الصلة بها، "كنت أخاف الخروج، لا لغرابة البلد وناسه، لكن بسببه، بسبب الثلج الذي ينكمش جسمي أمامه ويخفق في تلبية أوامري له بالتحرك".

والخوف، في منزلة الكاتبة، "تتخلله لحظات تشبه السلام". فقد خرجت إلى البياض، من دون أن تخرج من موضعها السردي والكتابي، وفتحت حقيبتها على مجال سويسري واسع، حيث لم تنتبه إلى المكان بل إلى الوقت، "قبل أن آتي إلى هنا كنت أظن أن الوقت عامل من عوامل الطبيعة، كالهواء مثلاً، نستطيع أن نمضي في حياتنا من غير أن نفكر فيه". ففتح الحقيبة، أو إغلاق الكتاب، أدى إلى الانتباه إلى الزمان، وفتح المُشاهدة أدى إلى تأليف مسلسل تلفزيوني، تلحقه شرف الدين بحقيبتها، أي كتابها، كي يُقرأ، لا كي يُشاهد.

©جميع الحقوق محفوظة لموقع المدن 2016